قراءة سردية في ومضة "أميَّة" لمحمد نبيل

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأتناول في هذه المقالة ومضة واحدة للقاص المصري محمد نبيل، وهي ومضة "أمية" التي تناولتها من قبل في الورشة النقدية التي كانت تقيمها مجموعة سنا الومضة القصصية بشكل منتظم بهدف بلورة رؤية إدارة المجموعة والأعضاء للقصة الومضة وتمييزها عن أنواع القولي الأخرى الأدبية وغير الأدبية التي تخلط بينها بعض المجموعات – التي يُفترض أنها مخصصة للقصة الومضة – وبين الومضة القصصية باعتبارها فنا سرديا في المقام الأول وليست حكمة أو مقولة أو تعليقا أو مَثَل. وبعد ظهور ملامح هذه الرؤية النقدية، اعتمدت مجموعة سنا الومضة القصصية على مجلة سنا الومضة القصصية بوصفها المنبر النقدي الأساسي للمجموعة. وسأتناول هنا هذه الومضة لمحمد نبيل بوصفها ومضة سردية في الاساس تتخذ السرد هدفا في حد ذاته للتعبير عن التجربة وليس مجرد وسيلة لتوصيل فكرة. وها هو نص الومضة:

أمِّيَّة

أهديتهم مكتبة، أوقدوها في الشتاء.

هذه الومضة موجزة ومكثّفة وتقوم على بنية الفعل ورد الفعل أو الفعل والنتيجة المترتبة أو اللاحقة على هذا الفعل. ويوجد تقابل في هذه الومضة بين الفعل الذي يقوم به الراوي – المتمثل في إهداء مكتبة لمجموعة من الأشخاص ربما كانوا أهله – والفعل الذي يقوم به هؤلاء الأشخاص وهو فعل يُبعد الهدف أو المغزى من الفعل الذي يقوم به الراوي ويحوله إلى مسار مختلف تماما. فإهداء المكتبة يجعلنا ننظر إلى الراوي على أنه شخص يهتم بأهله ويريد أن يجعلهم يتعلمون أو يتثقفون. ولكنهم لا يلتفتون لهدف الراوي ويستعملون كتب المكتبة كوقود في الشتاء للتدفئة أو لطهي الأكل أو للمساعدة على إشعال النار. وهذه هي المفارقة التي تسعى الومضة لإبرازها ويؤكدها العنوان الذي يُرْجِعُ ردَّ فعلِ هؤلاء الأشخاص إلى الجهل والأمية.

ومن الملاحظ من سياق النص أن هؤلاء الأشخاص ينتمون لبيئة ريفية، فبيئة المدن لا توقد نارا في الشتاء وإنما تعتمد على وسائل الإشعال الحديثة مثل الغاز أو البوتاجاز أو الكهرباء. والفعل "أهديتهم" يوحي أيضا بأن الراوي لا يسكن معهم في بيئتهم وإنما ينتمي لبيئة تهتم بالتعليم والثقافة بشكل أو بآخر، ومن الأرجح أن الراوي ينتمي في الأصل لهذه البيئة الريفية ولكنه هاجر أو اغترب وسكن بعيدا عنها في بيئة أخرى. وربما يمكننا أن ننظر إلى ما يقوم به هؤلاء الأهل نظرة تعاطف تتجاوز موقف الإدانة الذي يظهر على سطح الومضة، فربما كان هناك نقص في

الوقود الحديث أو في المواد التي يمكن إشعالها ولم يجد هؤلاء الأميون سوى كتب المكتبة ليشعلوا بها النار، خاصة وأن الراوي يذكر زمن الحدث – وهو الشتاء، وهو زمن معروف – على الأقل في ثقافتي المصرية وأنا كقارئ يمكنني النظر إلى النص من خلال خلفيتي الثقافية والبيئية والاجتماعية والاقتصادية – بأزمات متكررة في مصادر الوقود المنزلي على الأقل.

وأؤكد هنا على ضرورة رسم الشخصية بدقة في الومضة وضرورة خلق سياق قصصي متكامل داخل نَصِّها، ونجد ذلك متحققا في الومضة التي بين أيدينا الآن: فهنا توجد شخصيتان أو بالأحرى نوعان من الشخصيات، شخصية الراوي من جهة وشخصية الجماعة أو المجموعة التي (كان) ينتمي إليها من جهة أخرى. ومن خلال تحليلنا للكلمات القليلة التي تم استخدامها في صياغة هذه الومضة رأينا كيف أن الراوي له ملامح مميزة: فهو متعلم ومثقف ويهتم بتثقيف أهله ويريد أن ينتشر ما لديه من علم وما يمكن أن يوفره من خلال قدرته المادية كشراء كتب مثلا وهو يسكن في مدينة وهو ينتمي أصلا للقرية، وهناك أهله على الطرف الآخر الذين يتم تقديمهم على أنهم كتلة واحدة وشخصية واحدة لأن هدف السرد هنا لا يتمثَّل في التمييز بينهم وإنما في إبراز سلوكهم الجماعي إزاء ما قام به، وهم يعيشون في مجتمع قروي ويعيشون بشكل جماعي أشبه بالقبيلة أو الأسرة الكبيرة وهم لا يهتمون بالعلم كثيرا ولا يرون في الكتب

إلا وسيلة أو مادة ورقية خام يمكنهم أن يستفيدوا منها في تلبية احتياجاتهم من الطاقة الوقود. ونصّ الومضة ذاته منفتح على التأويل ولا يقصر الحدث على مجرد الأمية الواردة في العنوان. وهنا أذكر مثلا الناقد الروسي ميخائيل باختين الذي كان مطارَدًا ومدخِّنا، وعندما لم يتوفّر لديه "ورق البفرة" الذي يلف فيه السجائر استعمل مخطوطات العديد من كتبه بديلا عن ذلك الورق. هل نعتبر سلوكه هذا "أميَّةً"؟ لا أظن. ومن المعروف أن المجتمعات الريفية – وأنا كقارئ هنا (كنتُ) أنتمي إليها – تنظر إلى كل شيء على أنه وسيلة تستخدمها في تلبية احتياجاتها، وبالتالي عندما تبرز الحاجة إلى مصدر من مصادر الوقود أو يشتد البرد كثيرا في الشتاء وتكون كل المواد الأخرى القابلة للاشتعال قد نفدت، يتم استعمال الكتب والجرائد والمجلات الموجودة بالبيت، خاصة إذا كانت تخص شخصا مغتربا من أفراد الأسرة وبالتالي ينظرون إليه على أنه ليس في حاجة إلى مثل هذه الأوراق التي تمكن الاستفادة منها في التدفئة أو المساعدة في اشعال أغصان أشجار لم تجف بعد جفافا تاما. وبوجه عام، نص الومضة لا يدين هؤلاء الأشخاص ولا سلوكهم. وفكرة ذكر زمن محدد هنا – وهو زمن الشتاء – له دلالة خاصة في البيئة الريفية التي قد يتجمَّد فيها الإنسان ويموت من البرد يضع منظور الراوي في الومضة في منطقة الحياد الذي لا يستحسن ولا يستهجن، وإنما يكتفي بنقل الحدث كما هو مجردا من أي تقييم.

ومن الملاحظ أن المدى الزمني لهذه الومضة طويل قد يمتد لشهور أو سنوات ما بين إهداء المكتبة الذي لم يكن في الشتاء بالضرورة لأن مجرد ذكر كلمة الشتاء في الشق الثاني من الومضة يوحي بأن المكتبة تم إهداؤها في فصل آخر، وإلا لكان الراوي قد ذكر كلمة "الشتاء" بعد كلمة "مكتبة" مباشرة للتأكيد على أن المكتبة تم إهداؤها في ذلك الفصل. ويمكننا أن نبرر استعمال هذا الزمن الطويل في الومضة بأن الومضة لا تقدم لنا حدثا ممتدا، وإنما تقدم لنا فعلا في بدايتها وتحذف ما بعده من زمن إلى أن تصل إلى عملية الإحراق، وكأن الراوي يتذكَّرُ الفعلين/الحدثين معا ويجرِّدُهما مما بينهما من أحداث وامتداد.

بالرغم من أن المكان غير مذكور في نص الومضة هنا، يمكننا أن نستنتجه من خلال تحليلنا للعلاقة بين الشخصيات وخلفياتهم المعرفية والاجتماعية ونظرة كل منهم للكِتَاب.

ومن هنا أؤكد على ضرورة اهتمام كتّاب الومضة بالشخصية ورسمها بحرفية واقتدار من خلال الألفاظ الموحية التي تفتح لنا عالَمًا كاملا من التأويل والنظر والربط والاستنتاج، وضرورة الاهتمام بمكان وزمان الحدث وإن كان بالإيحاء وليس بالتصريح المباشر، وضرورة اختيار حدث له دلالة إنسانية كبيرة والخروج من دائرة الموضوعات الاجتماعية أو الدينية الضيقة التي تقتصر على الحكمة أو السخرية من فئة من فئات المجتمع أو تنميط المرأة أو الرجل أو الانحصار في التعاطف

مع اليتيم أو التركيز على الأم وجحود الأبناء أو إدانة العاهرات والراقصات. الومضة هنا ركزت على موضوع دال في المجتمع وهو موضوع الأمية أولا وما قد يتفرع عنه من مشاكل اقتصادية يعاني منها المجتمع الريفي وبلغة موجزة ومكثفة وانتقاء بارع للألفاظ وإدخال هذه الألفاظ في تركيبين لغويين قالا مئات الكلمات مع أن عدد كلمات الومضة خمس كلمات فقط.

obeikandl.com